﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 76]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد التّوافق على الحُكم، شرعوا يبحثون عن مُستَحِقّه، فوجدوا أخاه مدينًا به

لمّا تساءلوا عن حُكم السّارقِ في شريعتهم، واتّفقوا على أنّه يُحكَمُ عليه بأن يُسْتَرقّ في نظير ما سَوّلت له نفسُه مِنَ السّرقة، بيّن النّظمُ أنّهم شرعوا يبحثون في الأمتعة حتّى يتبيّنَ الأمرُ، فأقبلوا على ذلك بتفتيش أوعيتهم[1]، قبل تفتيش وعاء أخيه المقصود، كي لا يَلْفِتَ النَّظرَ، ولا يُثيرَ الرِّيبةَ بأنّ الأمرَ مُدَبَّرٌ.

وقال الإمام الرّازيّ: "اعلم أنّ إخوة يوسف لمّا أقرّوا بأنّ مَن وُجد المسروقُ في رَحْله فجزاؤُه أن يُسْتَرقّ، قال لهم المؤذّن: إنّه لا بدّ مِن تفتيش أمتعتِكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه"[2].

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كِدْنَا﴾: فعلٌ ماضٍ، جَذْرُه: (كيد)، وهو أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على مُعالَجَةٍ لِشَيْءٍ بِشِدَّةٍ، فالكَيْدُ: المُعالَجَةُ، وكُلُّ شَيْءٍ تُعالِجُهُ فَأَنْتَ تَكِيدُهُ[3]، والكَيْدُ: مصدرُ كادَهُ كَيْدًا وكِدْتُه، في معنى أَرَدْتُه[4]، والكَيْدُ: التَّدبيرُ بباطلٍ أو حقٍّ[5]، والكَيْدُ: ضَرْبٌ مِنَ الاحتيالِ، وقَدْ

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/51، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3845.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/488.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (دكي).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كيد).

يكونُ مَذْمُومًا ومَمْدُوحًا، وإنْ كان يُسْتَعْمَلُ في المَذْمُوم أكثرَ، وكذلك الاستدراجُ والمَكْرُ، ويكونُ بعضُ ذلك مَحْمُودًا[1]. ومعناه في الآية: أردنا ودبّرنا.

2) ﴿لِيَأْخُذَ﴾: الأصلُ في (الأخْذِ) حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ، تَقُولُ: أَخَذْتُ الشَّيْءَ آخُذُهُ أَخْذًا[2]، وهُوَ التَّناوُلُ، وهُوَ خِلافُ العَطاءِ[3]، وآخَذَهُ بَذَنْبِه مؤاخذةً: إذا حاسبَه[4]، وأَخَذَهُ بذنبِه وآخَذَه: عاقبَهُ[5]. ومعنى ﴿لِيَأْخُذَ﴾: ليَضُمَّهُ ويُدْخِلَه في حيازته.

3) ﴿دِينِ﴾: الدِّينُ: جِنْسٌ مِنَ الانْقِيادِ والذُّلِّ، والدِّينُ: الطّاعَةُ، يُقالُ: دانَ لَهُ يَدِينُ دِينًا، إذا أَصْحَبَ وانْقادَ وطاعَ، وقَوْمٌ دِينٌ، أي: مُطِيعُونَ مُنْقادُونَ[6]. ودِينُ الملكِ: طاعته[7]، وقضاؤه[8]. وقوله: ﴿فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: في طاعةِ المَلِكِ وقضائِه وسلطانِه[9].

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تدبير الله تعالى لكيد يوسف ﷺ، علوٌّ له ورفعٌ لدرجاته

حين أُرْجِعَ الإخوةُ إلى يوسفَ ﷺ لِتَفْتِيشِ أَوْعِيَتِهم، بدأَ بتفتيش أوعيةِ إخوته غيرِ الأَشِقَّاءِ قبلَ تفتيشِ وِعاءِ أخيه الشَّقيقِ؛ سَتْرًا للحِيلَة، ثُمَّ فَتَّشَ وِعاءَ شقيقِه، وأَخرجَ صاعَ المَلِكِ منه، كما كِدْنا لِيُوسُفُ بتدبيرِ وَضْعِ الصَّاعِ في وعاءِ أَخيه، كِدْنا له أَمرًا آخَرَ، أن يَأخذَ إِخْوتَه بعقابِ بلدِهم باسترقاقِ السَّارقِ، وهذا الأمرُ لا يَتَحَقَّقُ لو عَمِلَ بِعَقابِ المَلِكِ للسَّارقِ الَّذي هو الضَّرْبُ والتَّغريمُ، إلَّا أن يشاءَ اللّه تَدبيرًا آخَرَ فَهُو قَادرٌ عَليه، نَرْفَعُ مَراتِبَ مَنْ نَشاءُ مِنْ عبادِنا،

(1) الرّاغب، المفردات: (كيد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(3) الخليل، العين: (أخذ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (أخذ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أخذ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دين).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (دين).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دين).
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/459.

كَما رَفَعْنا مَرْتَبَةَ يُوسُفَ، وفَوْقَ كُلِّ صاحبِ عِلْمٍ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ، وفَوقَ عِلمِ الجميعِ عِلمُ اللّه الَّذي يَعْلَمُ كُلَّ شَيءٍ[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

### دلالة الفاء، وأثرها في التّعبير:

صَدَّر النّظمُ الكريم الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بالفاء؛ للدّلالة على أنّ ما بعدَها مسبّبٌ عنِ الاتّفاق على حُكم السّارق[2]، فبَعْدَ بيانِ العقوبة تسبَّبَ عن ذلك أنّهم قد شرعوا في التّحرّي عنِ الصُّواع في أوعيتهم.

التّحرّي في الأوعية، مُسَبَّبٌ عن بيان الجزاء

### سرّ التّعبير بـ ﴿فَبَدَأَ﴾ ماضيًا:

عبّر النّظم الجليل عن شُروع يوسفَ وفتيانِه بتفتيش أوعيَة إخوتِه بالفعل الماضي ﴿فَبَدَأَ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾، والفعل الماضي يدلّ على وقوع الحَدث قبلَ زمنِ التّكلّم، تعبيرًا عن أنّ المعنى قد وُجِدَ وحصل، ففيه تأكيدُ الحصول، ويُبيّن أنّه قد نَجزَ، فالتّعبير عن بَدء التّحرّي والتّفتيش في الأوعية إخبارٌ عمّا آلَتْ إليه أحداثُ القصّة، بعد ما وقع مِنَ الجدال والمدافعة في شأن البراءة والاتّهام.

الإخبار بالفعل الماضي، تأكيدٌ على حصول الحَدَث

### دلالة حرف الباء في ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾:

أدخل النّظمُ الجليل الباءَ على متعلّق الفعل ﴿فَبَدَأَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ للتّعديَة، فدلّت على أنّ متعلّق بَدْئِه هو الأوعية، فوقع ابتداؤه في التّحرّي على أوعية إخوته، فعَمِلتِ الباء على إيصال معنى البَدْءِ وإيقاعِه على مفعوله؛ لأنّ (بدأ) فعل لازم يتعدّى بالحرف.

إيقاع فعل الابتداء على مفعوله إنّما يكون بوساطة باء التّعديَةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/184، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/261، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 244.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/172.

### جمع الوعاء وعود الضّمير فيه:

تفتيش أوعيّة الإخوة العشرة، غايتُه التّمويه على الخطّة

أورد النّظم الكريم لفظَ الأوعية بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾؛ لأنّ الإخوة كانوا عشرةً، وكان لكلّ واحد منهم وعاءٌ، فصارتِ الأوعية كثيرةً[1]، فالتّعبير عن ذلك بالجمع مطابقةٌ للواقع، كما دلّ على أنّ التّفتيش وقع بها جميعًا على ما يقتضيه التّحرّي.

### سرّ التّعبير بالظّرف ﴿قَبْلَ﴾:

سرعة إنجاز التّفتيش، لا تحوج إلى تبعيض الزّمان

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالظّرف ﴿قَبْلَ﴾ دون حرف الجرّ (من) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾؛ إذ لم يكن بين فتح أوعيتهم وفتح وعاء أخيه فاصلٌ زمنيّ، فكان البَدءُ بأوعيتهم مستغرقًا للزّمان الذي وقع قبلَ فتح وعاء أخيه، فلم يُدْخَل حرفُ الجرّ لذلك[2]، فالزّمان مِن بَدء التّحرّي حتّى بلوغِ وعاءِ أخيه ليس فيه فسحةٌ بحيث يمكن أن يتجزّأ الزّمان إلى أبعاض، ففي ذلك تأكيدُ خلوّ تفتيش الأوعية مِنَ المهلة بينَ وعاءٍ ووعاء آخَر.

### إيثار لفظ الوعاء على الرّحل:

الوعاء يقتضي حفظَ ما فيه، وحَزْزَه عنِ الأنظار

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالوعاء دون الرّحل، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾؛ لدلالة الوعاء، إذ إنّه مشتقّ مِنَ الوعي، وهو الحفظ[3]، فهو مناسب للسّياق الذي يُورد حَدَثَ السّرقة، والسّرقة تقتضي حفظَ المسروقِ، والعنايةَ في إخفائه عنِ الأنظار، فالوعاءُ أدلّ على الحفظ مِنَ الرّحل الموضوع على الرّاحلة للرّحلة خاليًا مِن قيد الحفظ، ثمّ بالنّظر إلى الصُّواع المختفي، فإنّه لكِبَرِ حجمه لا يناسب أن يُخفَى في الرّحل، بل في وسط الوعاء، كي لا يظهر.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/296.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/172.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/31.

### دلالة إضافة الوعاء إلى الأخ الشّقيق:

الأُخـــوّة أصل الـــقـــصّـــة، والمـــقـــصـــود مـن أوّل الأمـر الإبقاء على الأخ الشّقيق

أضاف النّظم الكريم لفظَ الوعاء إلى ﴿أَخِيهِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، أي: أخي يوسف ﷺ الشّقيق (بنيامين)؛ لأنّه المقصود بالتّفتيش لإظهار كون الصُّواع في وعائه، فيتمّ الكيدُ الذي قُصِدَ منه الإبقاءُ عليه، وإظهارُ لفظِ (الأُخوّة) دون الضّمير - فلم يقل: (قبل وعائه) - لبيان أنّ سبب كلِّ ذلك الكيدِ وما جرى فيه إنّما لكونه أخاه، ولكونه هو المقصود مِن أوّل الأمر.

### سرّ إيثار العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

التّأنّي في التّحرّي يُبعد الشّبهةَ عـــنِ المـعـرفـة السّابقة بموضع السّقاية

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ دونَ غيرها مِن حروف العطف، في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾؛ للدّلالة على أنّ التّحرّيَ قد وقع على سبيل التّأنّي[1]، والتّأنّي أنسبُ لإبعاد الشّبهةِ فيما لو وقع التّحرّي بعجلة؛ لأنّه سيثير شبهةَ أنّهم يعرفون مكانَ الصُّواع قبلَ التّفتيش.

### دلالة صيغة الاستفعال:

طـلـب إخـــراج السّقاية، لـمّا لم يبق إلّا رحل أخيه

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغة (الاستفعال)، في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ في بيان إخراج السّقاية من رحل أخيه؛ للدّلالة على أنّه "أوجد إخراج السّقاية التي تقدّم أنّه جعلها في وعاء أخيه"[2]، فكأنّه لمّا بقي مِنَ الأوعية التي لم تُفتّش وعاءُ أخيه وحَسْبُ، ولم يكونوا قد وجدوا الصُّواع في تلك الأوعية، صار في حُكم المؤكّد أنّها في وعائه، فطَلَبَ منهم إخراجَها منه؛ إظهارًا منه لتَبرُّمه بهم، ممّا يزيد تعميةَ ما كاده بهم، من حيث لا يشعرون.

### توجيه عود الضّمير، وتأنيثه:

تأنيث ما يجوز فـيـه الـتّـذكـير والتّأنيث، إحالةٌ على السّقاية

الضّمير المؤنّث في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ يجوز فيه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/172.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/172.

أن يعود على السّقاية، وكذلك على الصُّواع؛ لأنّه يجوز فيه التّذكير والتّأنيث، فالتّذكير بتأويل ما شرب منه، والتّأنيث بتأويل السقاية[1].

### دلالة التّعبير بـ ﴿مِن﴾ الابتدائية:

ابتداء الإخراج كائنٌ مِنَ الوعاء، متضمّنٌ الدّلالةَ على وُجدان السّقاية فيه

أدخل النّظم الجليل حرفَ الجرّ ﴿مِن﴾ الابتدائيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾؛ للدّلالة على ابتداء الإخراج، أي: ابتدأ إخراجَها مِن وعاء أخيه، وهذا يتضمّن الإخبارَ بأنّها كانت فيه، فتضمَّن التّعبيرُ بحرف الجرّ ﴿مِن﴾ الدّلالةَ على الوجود فيه ضمنًا، والاستخراج منه تصريحًا.

### سرّ التّكرار والعدول:

تكرار لفظ الأُخُوّة، تنويهًا بأهمّيّة شأنها في سياق السّورة

كَرّر النّظمُ الجليل تركيبَ ﴿وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ ولم يقل: (ثمّ استخرجها منه)، أي: مِنَ الوعاء، كما لم يقل: (من وعائه)؛ وذلك لقصد زيادة الإيضاح والبيان[2]، كما أنّ فيه اهتمامًا بلفظ الأُخُوّة، فتَكرار هذا اللّفظ بأدنى مناسبة يناسبُ ما بُنيت عليه السّورةُ؛ إذ إنّها قد بُنيت على علاقة الأُخوّة مِن أوّلها حتَّى آخِرها. وفي التّكرار إزالةُ للّبْس؛ لأنّه لو قيل: (فاستخرجها منه)، لأوهمَ عودَ الضّميرِ على الأخ، فيصير كأنّ الأخَ مباشرٌ لطلب خروج الوعاء؛ وليس كذلك، لما في المباشرة مِنَ الأذى الّذي تأباه النّفوس الأبيّة؛ فأُعيدَ لفظُ الظّاهر لنفي ذلك[3].

### توجيه الإشارة في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

الإشارة بالمركّب (كذلك)، تعظيمٌ للمُشار إليه، وتنويهٌ به

اسم الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾، يُشير إلى الكيد الذي يدلّ عليه الفعلُ ﴿كِدۡنَا﴾، أي: مثلَ ذلك الكيدِ العظيم

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/391.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/296.
(3) عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/91.

كِدْنا ليوسف، "ولمّا كان هذا كيدًا عظيمًا في أخذ أخيه بحكمهم، مع ما توثّق منهم أبوهم، عظّمه تعالى بالإشارة إليه بأداة البُعد"[1].

### سرّ تقديم اسم الإشارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

قدّم النّظمُ الجليل اسمَ الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾، أي: مثلَ ذلك الكيدِ كِدْنا ليوسفَ، فقدّم الإشارةَ للقصر[2]، والأصل: كِدْنا ليوسفَ كيدًا مثلَ ذلك الكيدِ العظيم، لا كيدَ آخر غيرُه؛ تفخيمًا لشأنه.

ما يُنسب إلى الله تعالى مِن كيد على وجه التّسبّب، لا يكون كأيّ كيد

### سرّ التّعبير بلفظ الكيد مضافًا إلى ضمير التّعظيم:

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بلفظ الكيد في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾؛ لأنّ المراد منه المآل، إذ إنّ "لفظَ الكيدِ مُشْعِرٌ بالحيلة والخديعة، وذلك في حقّ الله تعالى محالٌ، إلّا أنّا ذكرنا - والكلام للرّازيّ - قانونًا معتبرًا في هذا الباب، وهو أنّ أمثال هذه الألفاظ تُحمَل على نهايات الأغراض، لا على بدايات الأغراض؛ فالكيدُ: السّعي في الحيلة والخديعة، ونهايتُه إلقاء الإنسان - من حيثُ لا يشعر - في أمر مكروه، ولا سبيل له إلى دَفْعه، فالكيدُ في حقّ الله تعالى محمولٌ على هذا المعنى"[3]، فإسناده إلى الله تعالى؛ لأنّه ﷻ هو المُسَبِّب والملهم له، والتّعبير عنِ الجليل بضمير العَظَمة تعظيمًا وتفخيمًا لشأن هذا الكيد، فهو كيد بما لنا مِنَ العظمة، فلا يُغلَب ولا يقف دون تحقيق ما جيء به لأجله.

السّبب يُضاف إلى مُسَبِّبه، ويُعَظَّم بإضافته لله تعالى

### دلالة التّعبير بالكيد على التّعليم:

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالكيد الذي يُراد منه تعليمُ يوسفَ عليه السلام، في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ

الكيد الّذي تعلّمه يوسفُ عليه السلام، تعليم خاصّ لا عامّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/172.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/391.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/488.

فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾، فالكيدُ هنا بمعنى التّعليم، أي: تعليم الكَيد[1]، وهو فعل يُتَوصّل به إلى مقصد خفيّ، والمراد به هنا: تعليمُ يوسفَ ﷺ بإلهامه هذه الحيلة المحكمة، في وضع الصُّواعِ وتفتيشه، وإلهام إخوته إلى ذلك الحُكم المُضْمِت[2]، فعبّر عن التّعليم بالكَيد؛ للنّصّ على خصوصيّة التّعليم هنا، فليس المراد مُطلق التّعليم، بل ما تُوُصِّل به إلى الإبقاء على أخيه.

### دلالة التّعبير بلام الجرّ:

ذلك الكيد العظيم إنّما جيء به ليوسف خاصّة

أدخل النّظمُ الجليلُ لامَ الجرّ على يوسف ﷺ، في قوله جلّ شأنه: ﴿كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾؛ للدّلالة على أنّ هذا الكيدَ خُصَّ به يوسفُ ﷺ؛ لأنّه إنّما وقع لأجله ولفائدته[3]، أي: "صنعنا له، ودبَّرْنا لأجل تحصيل غرضِه مِنَ المقدّمات التي رتّبها مِن دسّ الصُّواعِ"[4].

### نكتة إظهار اسم (يوسف) ﷺ:

ما وقع مِن كيد إكرامًا ليوسف ﷺ، وجزاءً لصبره

أظهر النَّظمُ الجليل اسمَ يوسف ﷺ في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾؛ تنويهًا به، وإشارةً إلى أنّ الكيد العظيم إنّما وقع لأجله خاصّة، وبيانًا لعلوّ شأنه، فجِيء بكلّ تلك الصّنائع إعلاءً له، وإلجاءً لإخوته إليه[5]، فَذَكَر اسمَه نصًّا على كون ذلك إنّما وقع إكرامًا له، وجزاءً لصَبره.

### دلالة النّفي في ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ﴾:

نفيُ الكون أبلغُ في نفي المضمون، ودلالةُ تأكيدِ امتناعِه

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالنّفي، بأسلوب نفي الكونِ، في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ لتأكيد النّفي، فهو لم يكن بحال مِنَ الأحوال مستطيعًا أن يأخذ أخاه تبعًا لشريعة الملك[6]،

(1) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد: 10/391.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/31.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/31.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/296.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/172، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/31.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/296.

ولكنّه أخذه تبعًا لشريعتهم هم، التي مكّنته مِن استبقاء أخيه معه كما هو مُدَبَّر، لأمرٍ سيُقضَى بعدُ، فالجملة "بيانٌ للكيد باعتبار جميعِ ما فيه، مِن وضع السّقاية، ومِن حُكم إخوته على أنفسهم بما يُلائم مرغوبَ يوسفَ ﷺ، مِن إبقاء أخيه عندَه، ولولا ذلك لما كانت شريعةُ القِبْطِ تُخَوِّلُه ذلك"[1].

### علّة التّعبير بفعل الكون الماضي:

جاء فعل الكونِ المنفيّ بصيغة الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ للدّلالة على رسوخ الامتناع والنّفي، وكونه منفيًّا على جهة القطع مِنَ الأصل، فنَفْيُ الإمكان المتعلّقِ بالزّمان الماضي المنقطعِ يَدُلّ على أنّه ممّا لا يندفع بشيء، وأنّه قد وقع ذلك المنعُ في عهدٍ بعيد، فلا يمكن نقضُه، والغرضُ مِن ذلك: تأكيدُ الامتناع ممّا يفصِح عن ضرورة ذلك الكيدِ وعِظَمِه.

امتناعُ أخذِ أخيه، امتناعٌ مؤكّد لا يمكن نقضُه

### دلالة اللّام في حيّز النّفي:

أدخل النّظم الجليل اللّامَ الدّالّةَ على الجُحود على الفعل ضِمن حيّزِ نفي فعلِ الكونِ، في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ دلالةً على تأكيد النّفي[2]، "ومعنى لام الجُحود هنا: نفيُ أن يكون في نفس الأمر سببٌ يُخوّل يوسفَ ﷺ أَخْذَ أخيه عندَه"[3].

لامُ الجحود تأكيدٌ لنفي أسبابِ أخذِ يوسف لأخيه

### التّعبير عنِ الأخذ بالمضارع:

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عنِ الأخذ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ دلالةً على تجدّد النّفي، ومِن ثمَّ تجدّدِ الحُكم واستمرارِه، فانتفاءُ قدرته على أخذ أخيه – تبعًا لقانون الملك – لا يتغيّر بمرور الزّمان، فجاء نفيُ المضارع لبيان وجهِ الكَيد وعِظَمِه.

تجدّد النّفي بعد رسوخه، زيادةٌ في تأكيد الامتناع، وتعظيمِ الكيد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/32.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 10/173.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/32.

### سرّ تكرارِ لفظ (الأخ) وإظهارِه:

تـكـرارُ لـفـظِ الأُخـوّة، يعمل على تمتين بُنيَةِ السّورةِ اللّفظيّة

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالاسم الظّاهر دونَ الضّمير في قوله جلّ شأنه: ﴿لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ﴾، فلم يقل: (ليأخذه)؛ تنويهًا بذكره، وتقديرًا لشأنه، فلم يكتفِ بذكره بالإضمار، كما أنّ ذِكر لفظِ الأُخُوّة يناسبُ سياقَ السّورةِ التي نوّهت بموضوع الأُخُوّة في كثير مِنَ المواضع، فكان ذِكْرُه مُعَضِّدًا لتماسك الألفاظ في السّورة، بتكرار اللّفظ الواحد في مواضع مختلفة منها.

### دلالة تعليق فعل الأخذ، بالجار والمجرور:

انـتـفـاءُ أخـذِه متـعـلّـقٌ بـدِيـن المَلِك، لا انتفاءً مطلقًا

علّق النّظم الجليل فعلَ الأخذ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ﴾ بشِبه الجملة مِنَ الجار والمجرور: ﴿فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ لبيان وجهِ الكيد، إذِ امتناعُ أخذِه في دِين الملك يُبيّن ضرورةَ ذلك الكيدِ، ولولا ذلك لما سَوّغ إيقاعَ الكيدِ، وقد كان جزاءُ السّارقِ في دِين الملك غيرَ ما ذكره إخْوةُ يوسفَ[1].

### بلاغة جملة الاستثناء:

لا حالَ يتيح أخذَ الأخِ إلّا الحالَ المتعلّق بمشيئة الله تعالى

الاستثناء في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ يَدلُّ على استثناء حالٍ واحدٍ غيرِ منفيٍّ مِن جميع الأسباب المنفيّة، أي: ليس هناك حالٌ يمكن أن يأخذَ بها أخاه على وَفْق دِين المَلِك إلّا في حال مشيئةِ الله تعالى ذلك، فالاستثناء "من عموم أسباب أَخْذِ أخيه المنفيّة"[2]، فهو استثناءٌ مِن عموم الأحوال، أو العِلل والأسبابِ، والمعنى: لم يكن ليأخذ أخاه لعلّة مِنَ العِلل، أو بسببٍ مِنَ الأسبابِ، إلّا لعلّة مشيئتِه تعالى، أو إلّا بسبب مشيئتِه تعالى[3].

### نُكْتَةُ التّعبير عنِ المشيئة بالمضارع:

لا يـقـع الـكـيـدُ - مـهـمـا كـان عـظـيـمًـا - إلّا بـمـشـيـئـة الـلـه تعالى

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في بيان مشيئته

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/173.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/32.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/297.

تعالى، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ للدّلالة على أنّ أَخْذَ الأخِ لا يكون إلّا بحال مشيئة الله تعالى المستمرّة المُعِينةِ على بُلوغ هذا المرادِ، فلمّا كان الاستثناء جاريًا على استثناء حالٍ مِن عموم الأحوال المنفيّة، دلّ التّعبيرُ بالمضارع على أنّ الحال التي استُثْنِيَت يُشتَرط فيها الاستمرارُ، وذلك يدلّ على شِدّة صعوبة الأمر؛ إذ هو لا يكون إلّا بمشيئةٍ مِنَ الله تعالى، وهذا يُفصِح عن عظيم الإنعام مِنَ العلّام المُتَفَضّل.

### دلالة التّعبير بالمضارع في ﴿نَرْفَعُ﴾:

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾؛ للإشعار بأنّ ذلك العلوَّ والرَّفعَ سُنّة إلهيَّةٌ مستمرّة[1]، لا سيّما وأنّ الرّفع وقع على اسم الموصول ﴿مَّن﴾ الدّالِّ على العموم، فهو يتعلّق بعموم مَن يشاء الله تعالى، وذلك يقتضي أنّه يَحْدُث في كلّ زمان، فاقتضى التّعبيرَ عن ذلك بالفعل المضارع.

**سنّة الله تعالى في رفع عبادِه الصّالحين دائمة في كلّ مكان**

### بلاغةُ الالتفات مِنَ الغيبة إلى التّكلّم:

التفت النّظمُ الكريم مِنَ الغَيْبَة في قوله: ﴿يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، إلى التّكلّم في قوله جلّ شأنه: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾؛ لما في التّكلّم مِنَ التّعظيم الذي يقتضيه السّياق، إذ "لما كان يوسف عليه السلام إنّما تمكّن من ذلك، بعلوّ درجته وتمكُّنه ورِفْعَته، بعدما كان فيه عندهم مِنَ الصّغار، كان ذلك محلَّ عَجَبٍ، فقال تعالى - التفاتًا إلى مقام التّكلّم - تقويةً للكلام بمقام الغيبة والتّكلّم، وزاده إشعارًا بعَظَمة هذا الفعل، بصَوْغِه في مظهر العَظَمة، منبّهًا لمَن قد يغفُل: ﴿نَرْفَعُ﴾، أي: بما لنا مِنَ العَظَمة"[2].

**التّكلّم إخبارًا بالإنعام، أفصحُ في بيان التّعظيم**

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/205.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/177.

### دلالة لفظ (الدّرجات) وجمعها:

مِنَحُ الله لعباده مُتفاوتةٌ بحسب مشيئته

أورد النّظم الكريم لفظَ (الدّرجات) بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾؛ للدّلالة على كَثْرة مِنَحِ الله تعالى لعباده، ودرجاتِ تفاوتِهم، ومعنى ذلك في الآية: أنّ الله تعالى يُري يوسفَ عليه السلام "وُجُوهَ الصّواب في بلوغ المراد، ويَخصُّه بأنواع العلوم، وأقسامِ الفضائل، والمراد هاهنا: هو أنّه تعالى رفعَ درجاتِ يوسفَ على إخوته في كلّ شيء"[1]، كما أنّ في الجمع بيانًا لسعة الإنعام الإلهيّ؛ إذ إنّه يعطي مَن يشاء الكثيرَ بلا حساب.

### بلاغة الاستعارة في لفظ (الدّرجات):

يرفع الله مَن يشاء، كما يرتفع الصّاعدُ في السُّلَّم

استعار النّظمُ الجليل الدّرجاتِ للشّرف والرِّفعة في قوله جلّ شأنه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾، فهي استعارةُ المحسوس وهو الدَّرجة، للمعقول وهو المكانة والشّرف[2]. وحقيقة الدَّرجة: هي ما يُرتقَى عليه في سُلّم أو نحوِه، وقد صيغت مِن (دَرَجَ)، إذا انتقل على بُطء ومَهَل، وهي هنا استعارةٌ للرِّفْعَة المُكنَّى بها عنِ الزّيادة في الفضيلة، فقد تقرّر في المتعارف عليه تشبيهُ المزيّة في الفضل بالعلوِّ والارتفاع، فَشُبِّهَ عُلوُّ المكانةِ بزيادة الدّرجات في سَير الصّاعد؛ لأنّ بزيادتها زيادةَ الارتفاع[3]، فَشَبَّه رَفْعَ الله تعالى مَن يشاء من عباده بارتفاع درجات السُّلّم، فيرتفع العبادُ بالمكانة كما يرتفع مَن يصعد تلك الدّرجات، فهي استعارةٌ تصريحيّة. تحتمل أيضًا: تشبيهَ معالمِ الذّكر في الدّنيا، ومنازلَ الثّوابِ في الآخرة، ببناءٍ يُوَطّد، ودرجاتٍ تُشَيّد[4].

### سرّ إيثار ﴿مَّن﴾ في السّياق:

إنعام الله تعالى متاحٌ لكلّ عباده، لا تَحُدُّه حدود

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ باسم الموصول ﴿مَّن﴾ في قوله جلّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/489.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/33.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/33.
(4) عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/91.

شأنه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾؛ للدّلالة على أنّ إنعام الله تعالى برفعِ الدّرجات - المتعلّق بمشيئته - يشمل عمومَ عباده، ولا ينحصر بأحد دون غيره، على وَفق ما تقتضيه المصلحةُ والحِكمة.

### دلالة العطف في الآية:

عـلّـة مـا وقـع مِـن كـيـد؛ أنّ الله تعالى يميّز عبادَه بدرجات العِلْم

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ معطوفة على الجملة الاستئنافيّة في قوله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾، التي سِيقت للتّذييل، فعَطْفُ الجملةِ الثّانيةِ عليها لاشتراكهما بكونهما تذييلًا لقصّة أَخْذِ يوسفَ ﷺ لأخيه[1]، تُخبِر الأولى عن رفع مكانة يوسفَ بالعِلْم، وتُخبر الثّانيةُ أنّ كلّ عالِمٍ فوقَه عالِمٌ، انتهاءً إلى العليم الذي وَسِع علمُه كلَّ شيء.

### بلاغة المجاز في الظّرف (فوق):

بـيـان فـوقـيّـةِ المكانة بالشّرف، لا فوقيّة الحيّز المعهودة

عبّر النّظم الكريم بلفظ ﴿وَفَوۡقَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾، والمراد بالفوقيّة: الفوقيّةُ المجازيّةُ، الدّالّةُ على شَرف الحال ورِفعته؛ لأنّ الشّرف قد جرت العادةُ أنّه يُشبَّهُ بالارتفاع[2].

### دلالة التّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾:

تأكيد استغراق كـلِّ ذي علـم، بكونه مفضولًا، انتهاءً إلى علم الله تعالى

عبّر النّظمُ الكريم بـ ﴿كُلِّ﴾ الاستغراقيّةِ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾؛ استغراقًا لكلّ أحدٍ منهم[3]، "أي: وفوقَ كلٍّ مِن أولئك المرفوعين عليمٌ يَرفَعُ كُلًّا منهم إلى درجته اللّائقة به"[4]، فهي تدلّ على استغراق كلِّ صاحبِ عِلْمٍ، بأنّه مفضولٌ مِن صاحب علمٍ أعلى شأنًا منه، انتهاءً إلى علم الله تعالى المطلَق، الذي تنقطع دونَه الفوقيّة.

---

(1) ابن التّمجيد، حاشية ابن التمجيد: 10/393، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/38.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/33.
(3) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد: 10/393.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/298.

### بلاغة التّعبير بـ ﴿ذِى عِلْمٍ﴾:

علمُه الذّاتيّ المطلَق ﷻ، يباين علمَ عباده الحادث

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالمركّب ﴿ذِى عِلْمٍ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، دون أن يقول: (وفوق كلِّ عالم)؛ لأنّه مركّب مِن كلمتين، بمعنى: صاحب علم، فهو مكوَّن مِن كلمتين منفصلتين، والصّاحبُ يُوجَد أوّلًا؛ وبعد ذلك يطرأ عليه العِلْمُ؛ فيصير صاحبَ عِلْم، أمّا ﴿عَلِيمٌ﴾ فإنّ عِلْمه ذاتيّ فيه ﷻ[1]، فالمركّب (ذو علم) يدلّ على وجود جهلٍ سابق لهذا العِلْم، وأنّ عِلْمَه كسبيٌّ حادثٌ، فجِيء بهذا التّركيب تبيينًا لمباينة عِلْمِه ﷻ لعِلْم عباده.

### علّة التّعبير بصيغة المبالغة ﴿عَلِيمٌ﴾:

علم الله تعالى واسع بليغ، لا يعزب عنه شيء

عبّر النّظم الجليل بصيغة ﴿عَلِيمٌ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، والمراد بهذا الوصف الله ﷻ، وهي صيغة مبالغةٍ دالّةٍ على أنّ الله تعالى له العلم البالغ[2]، ووجه المبالغة في سياق الآية: أنّ عِلْمَ الله تعالى واسعٌ لا يغيب عنه شيءٌ، وذلك لبيان كيفية رَفْعِه درجاتِ عباده، بحيث يرفعُ كلَّ واحدٍ منهم بحسب استعداده، وفوقَ كلِّ واحدٍ منهم عليمٌ لا يُقادَرُ قَدْرُ عِلْمه، ولا يُكْتَنَهُ كُنْهُهُ، يَرْفَعُ كُلًّا منهم إلى ما يليقُ به مِن معارج العِلْم ومَدارجه"[3].

### وجه تنكير ﴿عَلِيمٌ﴾، والالتفات فيه:

تعظيم علم الجليل، وتفخيمُه بالمبالغة، والتّنكير، والالتفات

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصفة (العليم) بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾؛ دلالةً على تعظيم صِفة العليم، فيضاف التّأكيدُ إلى ما دلّت عليه صيغةُ المبالغة مِن تعظيم العِلْم، كما أنّ الانتقال مِنَ التّكلّم في: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾، إلى الغَيْبَة التي يقتضيها الاسمُ الظّاهرُ ﴿عَلِيمٌ﴾؛ تعظيمًا لهذا العلم،

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/7028 - 7029.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/172.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/298.

وتظافرت الدّلائل مِن صيغة المبالغةِ، والتّنكير، والالتفاتِ إلى الغَيبة، على الدّلالة على فخامة شأنِه عزّ ذكره[1]. والمعنى: أنّ فوق كلِّ صاحبِ عِلْمٍ مِنَ الخَلْق ﴿عَلِيمٌ﴾ عظيمُ العِلْم، لا تَكْتَنِهُ عَظَمَةَ عِلْمِه العقولُ، ولا تتخيَّلُها الفُهُومُ، فهو يُسَبِّبُ مِنَ الأسباب ما تَطيحُ له أسبابُ العلماء، وتَحيرُ له ألبابُ العقلاءِ البُصراء، وهو اللّه تعالى"[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/298.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/178.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
---
227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث
---
الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»